بطل عرقته

عبد القادر الحسيني

بمناسبة ذكرى استشهاده

الاستاذ كامل السوافيري

يهتف بي الوفاء أن أذكر صديقاً وفياً ، وقائداً عربياً في مناسبة كريمة. أما ذلك الصديق فهو بطل العروبة المجاهد المرحوم عبد القادر الحسيني ، وأما المناسبة فهي ذكرى استشهاده المجيدة إذ سقط في حومة الشرف في الثامن من ابريل سنة ١٩٤٨

وليس البطل بالرجل المجهول الذي يحتاج للتعريف، أو المجاهد المغمور الذي يتطلب الشهرة ، فهو النجم المتألق في سماء الجهاد ، والكوكب المشرق في أفق الوطنية ، والسيف البتار في ثورة الحرية

عرفت الشهيد إبان الثورة الوطنية الكبرى في فلسطين سنة ١٩٣٦ وهو يخوض المعارك الدامية ضد الجيش البريطاني المجهز بأحدث الأسلحة مع نفر من المجاهدين الأبرار فيسير النصر في ركابه ، ويعود من المعركة وهو مكلل بأكاليل الفخر. ثم توثقت بيننا أواصر الأخوة والصداقة وكلما امتدت الأيام بصداقتنا زدت إعجاباً برجولته وتقديراً لشخصيته

ولعل أعظم نواحي إعجابي بالفقيد أنه قضى طفولته يمرح في

ابن الزبير كتاباً للمهلب يأمره فيه بمقاتلة الخوارج وبعده بعد النصر بالولاية على خراسان، فأخذ المهلب الكتاب بنفس راضية مطمئنة وتهض للأمر العظيم . والغريب في أمر هذا البطل أنه كان فوق الأحزاب في ذلك الزمن القائم على الحزبية المقيتة مما يدل دلالة واضحة على أنه كان جندياً مسلماً قد وقف حياته على المصلحة الإسلامية العامة ورصد بطولته على مجد الإسلام وعزته وكرامته . لا يعنيه من يكون الخليفة ولا أين يكون؛ سواء عنده أكان الخليفة علي بن أبي طالب أم معاوية بن أبي سفيان أم عبدالله بن الزبير أم عبدالملك بن مروان . وسواء لديه أكان مقر الخلافة الحجاز أم الشام، ولهذا فقد رأيناه جندياً غازياً لسمرقند في جيش معاوية بن أبي سفيان ثم رأيناه موضع ثقة ابن الزبير يعهد له بالولاية على خراسان ثم يوليه القيادة لحرب الخوارج ثم رأيناه موضع ثقة عبد الملك بن مروان فيعهد له بحماية الأهواز، ثم رأيناه موضع ثقة الحجاج بن يوسف الثقفي فيوليه على خراسان

ونعتقد أن وصيته لأبنائه الغر الميامين قبيل وفاته صورة واضحة لنفسيته الكبيرة التقية وأخلاقه الطاهرة الرضية وعقيدته الإسلامية القوية . لنسمع الآن المهلب يوصي أبناءه وقد جمعهم إليه وهو على فراش الموت يودعهم ويوصيهم ويفرغ نفسه في نفوسهم ويضع عقله في عقولهم ويصب همته في هممهم : دعا المهلب بسهام فحزمت وقال (أفتروفنكم كسريها مجتمعة؟ قالوا (لا) قال أفتروفنكم كسريها متفرقة؟ قالوا (نعم) قال فهكذا الجماعة

أوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم فإن صلة الرحم تنسئ في الأجل وتثري المال وتكثر العدد . وأنهاكم عن القطيعة فإن القطيعة تعقب النار وتورث القلة والقلة ، فتحابوا وتواصلوا واجمعوا أمركم ولا تختلفوا وتباروا تجتمع أموركم ، وعليكم بالطاعة والجماعة وليكن فعلكم أفضل من قولكم فإني أحب للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه، واتقوا الجواب وزلة اللسان فإن الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته وتزل لسانه فيهلك

اعرفوا لمن ينشاكم حقه ، فكفى بندو الرجل ورواحه إليكم تذكرة له . وآثروا الجود على البخل ، وأحبوا العرب واصطنعوا العرب فإن الرجل من العرب تعده المدة فيموت دونك ، فكيف الصنيعة عنده ؟ عليكم في الحرب بالأناة والكيد فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة ، وإذا كان اللقاء نزل القضاء فإن أخذ رجل بالحزم فظهر على عدوه قيل أتى الأمر من وجهه ثم ظفر فحمد ، وإن لم يظفر بعد الأناة قيل ما فرط ولا ضيع ، ولكن القضاء غالب . وعليكم بقراءة القرآن وتعليم السنن وأدب الصالحين وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم)

محمد الحسيني

أعطاف البشر ، ويختال فى رياض الأنس ، وترعرع فى أحضان النعيم حيث الثراء الواسع والجاه العريض ، والمحتد الكريم ، والمنبت العريق. وهذه العوامل تدفع الناشئ إلى الجنوح للدعة ، والركون للراحة والاستقرار ، والنزوع نحو الرغبات واللذات ، ولكنها لم تؤثر على عبد القادر ، إذ تمرد على بيئته ، وانتقل من الحياة الناعمة حيث الفراش الوثير والماء النمير والطعام الشهى إلى الحياة القاسية حيث يفترش الصخر ، ويتوسد الحجر ، ويطوى جوفه على الجوع ، ويهجر الرقاد ويتحلى الأهوال ، سعيداً بذلك ، طيب النفس قرير العين

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

ولقد كان البطل كامل الرجولة واضح المعالم فى كل أمر من أموره ؛ ينطق بالحق ، ويؤمن بالصدق ، ويدين بالعدل ويفى بالوعد ويواجهك بما فيك ، ويصارحك بالأمور ، وقد جنت عليه صراحته إذ خلقت له الخصوم والأعداء ، ولكنه لم يعبأ بهم ولم يحفل بخصومتهم لأنه كما يعتقد أرضى خالقه ، وأراح ضميره

وقد سطر له التاريخ أنصع صفحات التضحية والبذل ، التضحية بالنفس والمال والراحة . لقد حرمت عليه بريطانيا دخول فلسطين جزاء اشتراكه فى حربها عليها سنة ١٩٣١ وعاش الفقيد بعيداً عن بلاده يطارده الاستعمار الظالم من قطر إلى آخر وتلاحقه جنود الظلم وأعوان المستعمر ، وتضع فى طريقه العراقيل وتحوك المؤامرات مما جعله يقضى فترة من حياته فى غياهب السجون فتعود إليه العلل والآلام التى أصابته فى جسمه خلال جهاده المجيد ضد بريطانيا . ولقد تنقل البطل فى عواصم العروبة كلها من دمشق إلى بغداد ومن الرياض إلى القاهرة وكان فى كل حاضرة من هذه الحواضر يترك أطيب الأثر ، وأجمل الذكر

ولقد أنجب أبناءه الثلاثة موسى وفيصل وغازى فى أقطار مختلفة واحتمل فى سبيل ذلك شداد المحن وعظائم الزمن ، فلم تلن له قناة ، ولم يهن له عزم

ولقد كان عبد القادر يرى أن الدفاع عن الوطن واجب مقدس لا يجوز أن يأخذ عليه العامل أجرا ، ولذلك ما كان يستبيح لنفسه أن يتقاضى مرتبا إلا إذا أناخ عليه العقر ، وقسا عليه الدهر . وقد ضرب فى ذلك أروع الأمثلة فى العفة والنزاهة ، واحتقار المادة ، ونعى على الذين يتخذون الوطنية ستاراً لجمع الأموال طريقهم الملتوى وسبيلهم المعوج

ورغم أن عبد القادر كان قائدا مظفرا لم يعرف عنه أنه هزم فى معركة فقد كانت تشرق فى نفسه جوانب الإنسانية فهو من أشد الناس تأثرا بمظاهر البؤس والحرمان ، وأكثر الناس عطفا ومواساة للبائسين والمنكوبين . ولست أذيع سرا إذا قلت إن عبد القادر طالما جفف دموعا ومحا آلاما ، وأعاد البهجة والرواء إلى وجوه عابسة ونفوس حزينة

ولم يكن البطل لأسرته فحسب أو لفلسطين وحدها ؛ بل كان سيفاً للعروبة وفارساً للاسلام. سألته يوما قبيل توليته قيادة منطقة القدس عقب قرار التقسيم المشئوم : ماذا تريدأن تفعل بعد تحرير فلسطين من الاستعمار البريطانى والصهيونية ؟ فأجاب على الفور: أترك فلسطين وأسافر إلى شمال أفريقيا لأحارب الاستعمار الفرنسى كما حاربت الاستعمار البريطانى وأرجو أن يحقق الله أمنيتى وهى أن أفوز بنعمة الشهادة

وبعد فقد مضى عبد القادر ومضى قبله وبعده شهداء أبرار ، وإن أرواحهم لتطل على العالم العربى اليوم وتدعوه فى حرارة أن يحترم هذه الدماء الزكية وتنشده بيت أمير الشعراء

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

يا أبا موسى ! طيب الله ثراك ، وأحسن مثواك ، فلقد أديت الرسالة ، وبذلت لأمتك ووطنك أغلى ما تملك

عليك سلام الله وقفا فإننى رأيت الكريم الحر ليس له عمر

كامل السوافيرى

ظهر المجلد الثالث
من كتاب
وحى الرسالة
فصول فى الأدب والنقد والسياسة
والاجتماع والقصص
للأستاذ احمد حسن الزيات